الدعوة إلى الله تكون بعرض الإسلام كما أنزله الله

أ. د. عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم العويد

الدعوة إلى الله تعالى من أشرف المهمات وأعظم الأعمال كما قال تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [١] وبين سبحانه أنه لا أحسن حالا من عبد لله وفقه الله للعمل الصالح مع اشتغال بالدعوة إلى الله تعالى والسعي في هداية الخلق للخالق كما قال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [٢].

وتكاثرت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم آمرة بالدعوة إلى الله تعالى وتعريف البشرية كلها بدين الله تعالى بكل ما يستطيعه المسلمون أفرادا ومجتمعات من جهود، ففي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بلغوا عني ولو آية" [٣] وكان صلى الله عليه وسلم إذا خطب الناس يقول: "فليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه" [٤].

كما تكاثرت الأحاديث في بيان فضل الدعاة إلى الله بكل أنواع الدعوة إلى الله من دعوة غير المسلمين ودعوة المسلمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان أثر الدعوة عليهم وبركتها في حياتهم الأولى والأخرى، وكذلك بيان أثرها على

---

(١) آية ١٢٥ من سورة النحل.

(٢) آية ٣٣ من سورة فصلت.

(٣) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٤ / ٢٠٧ (ح ٣٤٦١).

(٤) رواه البخاري – كتاب العلم – باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رب مبلغ أوعى من سامع ١ / ٢٦ (ح ٦٧) ومسلم – كتاب القسامة – باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ٥ / ١٠٧ (ح ٤٤٧٧).

المجتمع وسعادته وحمايته، وفي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم حنين: "ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم" [١].

قال القرطبي في شرح الحديث: "ويعني به – والله أعلم – أن ثواب تعليم رجل واحد، وإرشاده للخير أعظم من ثواب هذه الإبل النفيسة لو كانت لك فتصدقت بها، لأن ثواب تلك الصدقة ينقطع بموتها، وثواب في العلم والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة" [٢].

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" [٣].

ويكفي الدعوة شرفا وعلوا أنها مهمة الأنبياء والمرسلين، وأن الدعاة هم أتباع الأنبياء والمرسلين بإحسان.

قال الإمام ابن باز: "وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن الدعوة إلى الله سبحانه وإرشاد العباد إلى ما خلقوا له من أفضل القربات وأهم الواجبات وأنها هي سبيل الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة" [٤].

وقال: "فحقيق بأهل العلم والإيمان أن يضاعفوا جهودهم في الدعوة إلى الله سبحانه وإرشاد العباد إلى أسباب النجاة وتحذيرهم من أسباب الهلاك ولاسيما في هذا

---

[١] رواه البخاري – كتاب الجهاد والسير – باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وقوله تعالى {ما كان لبشر أن يؤتيه الله} إلى آخر الآية ٤ / ٥٧ (ح ٢٩٤٢). ومسلم – كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٧ / ١١٩ (ح ٦٣٧٦).

[٢] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٧ / ٢٨.

[٣] رواه مسلم – كتاب العلم – باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ٨ / ٦٢ (ح ٦٩٨٠).

[٤] مجموع فتاوى ومقالات ابن باز ١٦ / ٩٦.

العصر الذي غلبت فيه الأهواء وانتشرت فيه المبادئ الهدامة والشعارات المضللة وقل فيه دعاة الهدى وكثر فيه دعاة الإلحاد والإباحية فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" [١].

ولا يخفى أن للدعوة وسائل تقوم بها هي في ميزان الشريعة باب واسع يقوم مداره على أن كل أسلوب يغلب على الظن أنه نافع ومؤثر وليس بمحرم ولا يؤول إلى محرم فهو وسيلة مشروعة للدعوة إلى الله تعالى.

ومن تأمل كتاب الله تعالى في الحديث عن الدعوة إلى الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم القولية في أحكام الدعوة، والفعلية في أساليبه صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله تعالى يدرك أن الوسائل في الدعوة إلى الله ليست توقيفية بمعنى أن للدعوة وسائل في الوحيين يجب لزومها ولا يجوز مجاوزتها.

فوسائل الدعوة إلى الله اجتهادية ما دامت تحقق المقصود منها وهو العلم بالله والدعوة إلى دينه، ما لم يرتكب فيها ما يناقض ويخالف هذا المقصد ويعود عليه بالإبطال مما كان من هذه الوسائل محرما بذاته أو يؤول لمحرم.

"والمتأمل للكتاب والسنة يجد أنهما أمرا بالدعوة وبينا طرائق الدعوة إجمالا كما في قوله {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [٢] وكما في قوله تعالى {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [٣] أما تفاصيل هذه الأساليب فلم يتعرضا لها، بل تركا هذا لنظر الداعي واجتهاده" [٤].

---

[١] مجموع فتاوى ومقالات ابن باز ١٦ / ٩٧.

[٢] آية ١٢٥ من سورة النحل.

[٣] من آية ١٠٨ من سورة يوسف.

[٤] شرح منظومة القواعد الفقهية ص ١٥٧ و ١٥٨.

ومفاد ما تقدم أن الوسائل للدعوة قد جاء وروده في الشرع تطبيقا وعملا فهو آكدها وأعظمها بركة، وما سكت عنه الشارع وهو مباح في أصله وقد ظهرت ثمرته وسيلة للدعوة فهذا مما يصح و "الوسائل لها أحكام المقاصد"، وما كان محرما بأصله فهو محرم أن يكون وسيلة للدعوة ولا يتعبد لله تعالى بالدعوة إليه بسلوك طريق محرم.

وإن مما ينتهج من وسائل للدعوة وهي أمور غير مشروعة بدعوى تيسير الشريعة بما لم يحظ بموافقة دليل من الكتاب والسنة ولا يتوافق ومقاصد الشريعة لتزيينها لتقبل هو وسيلة دعوية غير صحيحة، فهو تغيير للشريعة، إذ جمال الشريعة أن تعرض كما أنزلها الله تعالى.

والحماسة للدعوة ولقبول الناس لها ليس مسوغا صحيحا لتهوين وتوهين أحكامها عن طريق التيسير الذي لا دليل عليه ليقبل الناس عليها، فهو وسيلة مناهضة لأصل الشريعة ابتداء، وتؤول إلى مفاسد تحيق بالمدعوين وتشويه صورة الإسلام انتهاء.

بل هو كما قرره الشاطبي مما يؤول بالإبطال لأصل الشريعة فكيف يدعى إلى الله تعالى بوسيلة من توهين أحكام الشريعة هي مما يسقط به الأصل المدعو إليه.

والشاطبي حين يقرر أن الأصل في وسائل الدعوة مشروعيتها وإباحتها بكل طريق يوصل رسالة الله للبشرية فإنه يؤكد امتناع حل ما كان من هذه الوسائل مخالفا للشرع لأنه يعود على الأصل الذي يدعى إليه بالإبطال.

قال الإمام الشاطبي: "والتبليغ كما لا يتقيد بكيفية معلومه، لأنه من قبيل المعقول المعنى فيصح بأي شيء أمكن من الحفظ والتلقين والكتابة وغيرها، كذلك لا يتقيد حفظه عن التحريف والزيغ بكيفية دون أخرى إذا لم يعد على الأصل بإبطال"[١].

وقد "ظن بعضهم أن من مقتضى التيسير موافقة رغبة الناس، رغبة في تحبيب الدين، وتقريبهم من التمسك بالشرع الشريف، ولكن الواقع أثبت أن هؤلاء لا يدخلون

---

(١) الاعتصام ١ / ١٨٦.

الدين من باب إلا ويخرجون من باب آخر، وبذلك تكون الخسارة مضاعفة، فلا هم رجعوا إلى الدين ولا الذين تمسكوا بالتخفيف يحمدون بقاء الأحكام على ما هي عليه مما تفيده النصوص..." [١].

والتخفيف من الأحكام بدعوى التيسير في قضايا الدعوة له صور منها:

- الإقرار بالمحرم من المدعو حال الدعوة ومخالطته حال ممارسة المحرم بحجة تأليف قلبه.
- استخدام وسائل محرمة للدعوة كأن تشتمل الوسائل على تناول محرم أو سماع ومشاهدة محرم.
- تمييع قضايا الحلال والحرام بعد استجابة المدعو.
- التأخير في الأمر بالواجبات اللازمات التي هي فواصل بين الإسلام والكفر بدعوى التحبيب للإسلام أولا.

وغيرها من الصور.

وكلها مما يخالف أصول وقواعد الشريعة ببيان الشريعة كما أنزلها الله تعالى والذي هو من أعظم مقاصد الشريعة.

ومن الوهم ما يتوقعه بعض السالكين لطريق الدعوة أن القابلية للإسلام لغير المسلمين أو للهداية لعصاة المسلمين هو تزيين الحق بشوبه بما تهوى النفوس وما تشتهيه حتى لو خالف الحق والدليل.

والله تعالى بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بالتوحيد الذي هو مناقض لحال المشركين فلم يداهنهم فيه ولم يتنازل عنه، مع عروضهم لمناهج توافقية يمكن أن يسلموا له لو رضيها، فكان أن صنع صلى الله عليه وسلم منهجا في رسوخ الحق وثباته ولزومه حتى لو قل الركب وطال الوقت وعظم الأذى وحوربت الدعوة.

[١] منهج التيسير المعاصر ص ٢٥٥.

ونجاح الدعوة هو بالقيام بأمر الله تعالى بالدعوة وعلى منهج كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهداية الناس للحق الواضح البين الذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وإن قل السالكون وندر الأتباع.

وليس كثرة الأتباع بدليل على نجاح الدعوة مع مخالفة منهج الشريعة ومقاصدها وتغيير أحكامها فأتباع كثير من الأنبياء قليل.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال: "عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد" [١].

قال الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه أصول الدعوة "فإذا ما قام الداعي بما هو مطلوب منه لم يكن مسؤولا عن نتيجة عمله من حيث بلوغ الغاية والوصول إلى المراد، لأن الله تعالى يقول: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [٢] والحساب إنما يكون على مشروعية عمل الإنسان، وهل أدى كل ما عليه من واجب؟ وإذا تبين هذا الأمر ووعاه الداعي وفقهه، لم يكن له أن يخرج على النهج الصحيح بحجة صعوبته أو طوله، أو عدم قبول الناس له، أو تعجلا من الداعي لبلوغ الغاية، أو انسياقا منه وراء عاطفة نبيلة دينية حسنة، ورغبة صادقة في العمل والجهاد والشهادة في سبيل الله، لأن الخطأ لا يصير صوابا بالنيات الحسنة والعواطف النبيلة، وأن الوصول إلى المقصود لا يكون بالسير على ما لا يؤدي إليه، وإن كان السائر جد حريص على الوصول" [٣].

❖❖❖

---

[١] رواه البخاري – كتاب الطب – باب من لم يرق ٧ / ١٣٤ (ح ٥٧٥٢)، ومسلم – كتاب الإيمان – باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ١ / ١٩٩ (ح ٣٧٤).

[٢] من آية ١٦ من سورة التغابن.

[٣] أصول الدعوة ص ٤١٦.